

تاريخ التعليم في الدولة المهدية في السودان

(1298-1315هـ / 1881-1898م)

. أسامة عبدالله محمد الأمين - أستاذ التاريخ المشارك - كلية الآداب - جامعة بخت الرضا

المستخلص

تتناول هذه الدراسة تاريخ التعليم في الدولة المهدية في السودان خلال الفترة من (1881-1898م) متتبعه مساره المختلفة . وتهدف الدراسة إلى توضيح الدور الذي قامت به الدولة المهدية في نشر التعليم في السودان .

انتهجت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي , كما اعتمدت الدراسة في جمع المادة العلمية التاريخية على مجموعة من المصادر والمراجع التي تناولت موضوع تاريخ التعليم في السودان خلال فترة الدولة المهدية .

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها أن الدولة المهدية هي أول من أدخل تجربة التعليم الخاص في السودان .

Abstract

This study deals with the history of education in Sudan during the Mahdia state of Sudan (1881 - 1898) following its different paths. The study aims at clarifying the role played by the Mahdist State in expanding the education in Sudan.

The study followed the historical descriptive analytical method. In collecting historical scientific material the study used a number of sources and references that dealt with the subject of history of education in Sudan during the period of Mahdia State .

The study reached several conclusions, the most significant is that, the Mahdia State is the first who introduced the experience of private education in Sudan .

مقدمة :

إن الهدف الأساسي من العلم في الإسلام عند الرجل والمرأة على السواء هو تكوين وتربية الشخصية المسلمة المتزنة روحياً وجسدياً التي تستطيع أن تقوم بمسؤوليتها بكفاءة وإحسان وتسعى إلى التغيير وبناء مجتمع يقوم على تقوى الله سبحانه وتعالى وتحقيق خلافته في الأرض . وعندما قامت الدعوة المهدية في السودان (1298هـ - 1881م) كانت الفلسفة التربوية العامة تتبنى على العودة بأفراد المجتمع السوداني إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة . لذا تأتي هذه الورقة البحثية كمحاولة لتسليط الضوء على التعليم ومناهجه ونظامه في الدولة المهدية .

أهمية البحث :

- تسليط الضوء على مسيرة النظام التعليمي في السودان خلال فترة الدولة المهدية.

أهداف البحث :

- 1- التعرف على فلسفة وأهداف التعليم ومناهجه في السودان خلال فترة الدولة المهدية .
- 2- إبراز الدور الذي قامت به الدولة المهدية في نشر التعليم في السودان .

منهج البحث :

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي وذلك باستخدام الأسلوب الوصفي التحليلي .

حدود البحث :

أرض السودان في فترة الدولة المهدية (1881-1898م) للتعرف على معرفة الجهود التي بذلت في نشر التعليم .

تمهيد :

المهدية عقيدة دينية قديمة ساعدت في إبرازها لحيز الوجود بواعث ومؤثرات سياسية واجتماعية ونفسية تمثلت في ظلم واضطهاد الحكام للمحكومين . وشاعت فكرة المهدي المنتظر وانتشرت في كافة الأقطار الإسلامية لاسيما السودان . وكانت حالة المجتمع السوداني قبيل ظهور الدعوة المهدية فيه تمثل التربة الصالحة لنمو تلك الأفكار التي تبشر بظهور المهدي المنتظر .

قامت الدعوة المهدية في عام (1298هـ - 1881م) بهدف إقامة مجتمع سلفي يستمد قيمه من الكتاب والسنة . ولما كان الفضل في تأسيسها يرجع في المقام الأول إلى مؤسسها محمد المهدي بن عبدالله الصوفي الزاهد , فمن الضروري أن نأتي بطرف من سيرته , وتعليمه , وتصوفه , وثقافته , لأن ذلك يلقي الضوء على السياسة التعليمية التي انتهجتها المهدية في السودان .

كان محمد أحمد بن عبدالله ميلاً منذ طفولته لحياة التدين والزهد , فتعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم في خلوي الخرطوم , ثم درس العلوم الفقهية على يد الشيخ الأمين الصويلح في مسجد ود عيسى بقريه كترانج جنوب الخرطوم على الضفة الشرقية للنيل الأزرق .⁽¹⁾ ثم انتقل منها إلى

خلاوي الغبش وهي قبالة بربر بالشاطيء الغربي من النيل ليدرس على الشيخ محمد الخير علوم الفقه والتوحيد والتصوف وهناك كان يمارس الزهد والتقشف والتعبد فحلقات الدرس والمناقشة بالنهار والتهجد بالليل.⁽²⁾

ويروي نعوم شقير أن محمد أحمد بن عبدالله امتنع عن الأكل من الطعام الذي كان يقدمه شيخه محمد الخير للطلبة , لأنه كان من مال الحكومة , وهو في نظره مال ظالم .⁽³⁾

ولقد تأثر محمد أحمد بن عبدالله دون أقرانه بأنوار التصوف فأقبل عليها وأنه ليروض نفسه حتى يكبح جماحها ويقهر على الصعب في الأمور حتى يلين مراسها ويتغلب عليها ولن يستطيع ذلك إلا إذا قنت وصرف نفسه عن أغراض الدنيا .⁽⁴⁾ فعكف على دراسة ماكتبه بعض العلماء المتصوفة أمثال الغزالي صاحب كتاب إحياء علوم الدين , والشعراني مؤلف كتاب كشف الغمة عن جميع الأمة , وابن عربي صاحب كتابي الفتوحات المكية وعتقاء مغرب , ونور الحلبي مؤلف السيرة الحلبية وغيرهم من علماء الإسلام , حيث كان الجو العام في القرى والأرياف وفي ضرائح الأولياء والصالحين وفي الخلاوي ومساجد العلم والقرآن الكريم مليء بمثل هذه الثقافة الدينية التي تنزع إلى التصوف والاعتقاد في الكرامات والحضرات النبوية والرؤى الصادقة ودرجات الأولياء وفوق ذلك ترقب ظهور المهدي المنتظر خاصة بعد تقشي البدع والخرافات⁽⁵⁾

وبعد أن أتم محمد أحمد بن عبدالله دراسته على يد شيخه محمد الخير أقبل على التصوف فجاى إلى مسيد أم مرحي شمال أم درمان وانخرط في الطريقة السمانية على يد الشيخ محمد شريف نور الدائم حفيد الشيخ أحمد الطيب البشير مؤسس الطريقة السمانية في السودان , وأدخله في الطريق عام (1277هـ - 1861م) وسار محمد أحمد بن عبدالله على المنوال الذي كان يسير عليه من زهد وتقوى وولاء لشيخه , وقد احتل مع مرور الزمن مكانة مرموقة في نفس شيخه فأعجب به ونصبه شيخا وأعطاه راية وأذن له أن يدخل الناس في طريقته . ويعد هذا الإذن من الشيخ محمد شريف نور الدائم دليلا على ما بلغه محمد أحمد بن عبدالله من مرتبة في فهم أصول الطريقة السمانية وآدابها .⁽⁶⁾

انتقل محمد أحمد بن عبدالله وإخوانه إلى الجزيرة أبا في عام (1286هـ - 1871م) وكان من أولى الخطوات أن أنشأ فيها خلوة لتدريس القرآن الكريم وقد تخرج على يديه في هذه الخلوة علماء كان لهم فيما بعد دورهم الفعال في الحركة المهدية . وقد تجمعت حول الخلوة والمسجد الملحق بها شهرته فقصدته الناس وأعطته القبائل حول الجزيرة أبا ولاءها الخالص نذكر منها قبائل كنانة ودغيم . وقد انتقل الشيخ محمد شريف نور الدائم في السنة التالية إلى العراديب القريبة من الجزيرة أبا بناء على طلب تلميذه , وكان من أثر اجتماعهما في هذه المنطقة أن اشتد نفوذ طائفة السمانية في منطقة النيل الأبيض وبالأخص نفوذ محمد أحمد بن عبدالله الذي فاق نفوذ شيخه وبلغت شهرته شأوا عظيما , ولا لكونه داعية للإسلام والطريقة السمانية فحسب , وإنما لاعتقاد الناس فيه هو شخصيا , مما كان سببا في فض العلاقات الحميمة التي ربطت بين الشيخ وتلميذه , فقد وقع بينهما خلاف عميق في عام (1295هـ - 1878 م) , ثم تطور الخلاف إلى عدا شديدا وطرد محمد أحمد بن عبدالله من الطريقة السمانية التي يتزعمها الشيخ محمد شريف نور الدائم.⁽⁷⁾

واصل محمد أحمد بن عبدالله سلك الطريقة السمانية بعد طرده حيث انضم إلى الفرع الثاني للسمانية , وكان يتزعمه الشيخ القرشي ود الزين في الحلاوين وأخذ عليه العهد فخلفه شيخا من شيوخ الطريقة السمانية رغم احتجاج شيخه الأول محمد شريف نور الدائم على ذلك.⁽⁸⁾

ويبدو أن قبول الشيخ القرشي ود الزين به في الطريقة السمانية زاده تقربا منه وأكسبه محبته , ودليلنا على ذلك خروجه مع طلبته إلى الحلاوين عندما سمع بوفاة شيخه القرشي ود الزين , وشرعوا في بناء قبة له في قبره في عام (1298هـ - 1880م) .⁽⁹⁾

ورجع محمد أحمد بن عبدالله إلى الجزيرة أبا بعد بنائه لقبة شيخه , وواصل نسكه وعبادته , وفي منتصف عام (1297هـ - 1880م) بدأ يعمل لبناء مجتمع إسلامي جديد على غرار المجتمع الذي أقامه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته , وكان عليه أن يبذل جهده أولا في بناء نواة له في منطقة نائية عن العاصمة (الخرطوم) . وفي هذا الوقت قام محمد أحمد بن عبدالله بالعديد من الزيارات لأجزاء متفرقة من البلاد متفقدا لأحوالها وداعيا للإصلاح الديني فطاف في جميع البلاد من دنقلا إلى سنار شمالا وجنوبا , ومن النيل الأزرق إلى كردفان شرقا وغربا , فعاش بأحاسيسه ومشاعره يستمع إلى المظالم والمفاسد التي كان يحكيها الناس ورأى كراهيتهم للحكم التركي - المصري , وكان كثير منهم يتمنى ظهور المهدي المنتظر لينقذهم مما هم فيه , وكانوا كلما رأوا رجلا أفضلهم عقلا ودراية وله الغيرة على الدين ظنوه المهدي المنتظر .⁽¹⁰⁾

وهكذا استطاع محمد أحمد بن عبدالله أن يهيب الأذهان لتقبل المهديية عند إعلانها وكان الناس مما ذكرنا أنفا على استعداد لتصديق هذا الأمر وإتباعه لكثرة ما أصابهم من ظلم وما لحقهم من أذى , ولأنهم كانوا قد بلغوا نهاية القرن الهجري وقد شاع أن القرن الهجري لا ينتهي قبل أن يأتيهم المنقذ الموعود .⁽¹¹⁾

وبناء على الأسس الواردة في الحضرة النبوية أعلن أنه المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما , كان ذلك في منتصف عام (1298هـ - 1881م) حين بادر بإرسال عدة رسائل لزعماء القبائل ومشايخ الطرق الصوفية والفقهاء دعاهم فيها لنصرة الدين ومبايعته في وقت كان الناس يتوقعون فيه ظهور المهدي المنتظر . وبالفعل استجاب له عدد غير قليل من القبائل ثم تتابعت من بعد ذلك الوفود عليه من جهات شتى استجابة لنداء المهديية .⁽¹²⁾ ولجأ محمد أحمد ابن عبدالله إلى تغيير اسمه هو نفسه فبعد أن كان اسمه محمد أحمد المهدي ذكر لأصحابه أنه حصلت أوامر من الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتغيير اسمه إلى محمد المهدي .⁽¹³⁾

وهكذا لقيت دعوة محمد المهدي بن عبدالله قبولا كبيرا , كان دون شك لحالة البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأيضا الثقافية - يد كبرى فيه فقلوب أفراد المجتمع السوداني منفتحة ومهيأة وقد عم الظلم والفساد البلاد لهذا أقبل عليه الزعماء وشيوخ القبائل مبايعين قائلين: (نبايعك على المهديية وإن لم تكن مهديا نبايعك على قتال الحكومة وخلع طاقتها).⁽¹⁴⁾

أما إذا أردنا نبحت عن مصادر ثقافة محمد المهدي بن عبدالله ومنابعها فنجد أن شخصية محمد المهدي بن عبدالله كانت ذا تأثير قوي على أتباعه بسبب صفاته ومسلكه فضلا عن ذلك كان ذا قدرة فائقة على التأثير الخطابي وإثارة الحماسة في الناس حيث كان يحثهم على الزهد والجهاد من أجل أن ينالوا الجنة فيتحمسون وتأخذهم النشوة فينشدون بمدائح محمد المهدي بن عبدالله

(15) كذلك كان لمحمد المهدي بن عبدالله أسلوب يكثر فيه من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ويضرب فيه للناس الأمثلة بما ألفوه في حياتهم العادية , وقد وجه محمد المهدي بن عبدالله عنايته إلى رسالة المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما فسعى لإصلاح ما فسد في المجتمع السوداني . (16)

وقد اسهمت رحلة محمد المهدي بن عبدالله العلمية برصيده العلمي ونضجه الفكري وإيمانه العميق بتحمل مهمة الإصلاح حتى إذا ما تفاعل كل ذلك مع الواقع السوداني السياسي والاجتماعي وقد ولد ذلك التفاعل خصالا قيادية أنضجتها التجربة في الدعوة . وإلى جانب شخصية محمد المهدي بن عبدالله التي اشتهرت بالتمسك بالدين , هنالك منبع آخر هو المنبع الروحي الصوفي حيث نشأ محمد المهدي بن عبدالله صوفيا ولا ريب أن النزعة الزهدية التي ورثها من تربيته وانخراطه في سلك الصوفية فترة من الزمن قد تجلت فيما بعد حين دعا إلى الزهد وبساطة المظهر والابتعاد عن ملذات الحياة الفانية , فأبقى مع القرآن الكريم والصحيحين كتباً تتناول التصوف وتعاليمه مثل إحياء علوم الدين للغزالي , ومؤلفات الشعراني , وتفسير روح البيان للألوسي بالإضافة إلى تفسير البيضاوي وجلال الدين السيوطي وأهتم أيضا بالقرآن الكريم وأمر بتدريسه إلزاميا . (17)

ولا يكتمل الحديث عن ثقافة محمد المهدي بن عبدالله دون الإشارة إلى الراتب الذي هو (مكون من آيات قرآنية وارده في مستهله وعلى طوله وفي خواتمه . وهو تطلع للاهتمام بالقرآن , وبدعوات مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويشتمل كذلك على حمد الله , والشهادة بوحديته , وبرسالة نبيه , والتوبة إليه تعالى , واستغفاره وتسيحه , وطلبه الهداية والتوكل عليه , ونسبة الأمور كلها إليه , والصلاة على رسول الله والاستعداد لإتباع سنته , والثناء عليه وعلى آله وصحبه , والدعوة للتضحية في سبيل الله وإذكاء روح الفداء وتأكيد الصبر على الشدائد والمشاق , والزهد في الدنيا وطردها من الاحاطة بالقلب , والشوق للقاء الله , ومناجاة الخالق مناجاة العبد المجرم المسئى الراجع إلى مولاه خاضعا تائبا منكسرا) (18). ويقرأ الراتب في وقتين أمر الله أن يخصصا للتسبيح والذكر هما الأول ما بعد الفجر وقبل طلوع الشمس , والثاني ما بعد العصر وقبل غروب الشمس . (19)

وقد تمكن محمد المهدي بن عبدالله أن يحول ثورته الدينية إلى حركة عسكرية ضمت في صفوفها معظم الطبقات المظلومة والعناصر المتدمرة التي ساعدته في إزالة الحكم التركي - المصري في بلاد السودان بعد معارك عسكرية استمرت طيلة الفترة (1298 - 1302 هـ / 1881-1885 م) وأسس دولة دينية كان جهازها الإداري يقوم على أسس شبيهة بنظام الخلافة الإسلامية .

فلسفة التعليم في الدولة المهدية :

1- قامت دولة المهدية بثورة تعليمية على مناهج التعليم السابقة التي أصيبت بعيوب كثيرة , منها قبول الفقهاء للمرتبات والإعانات من حكومة الأتراك , فقد ذكر محمد المهدي بن عبدالله أنه لا يجوز قبول المرتبات لأنها جمعت من الأهالي دون وجه حق شرعي . (20)

2- تجنبت دولة المهديّة إثارة المواطنين لاسيما أن محمد المهدي بن عبدالله كان قد عاش وسط عامة الناس وتعرف على رغباتهم وشكواهم عن قرب بل تأثر بنظرتهم نحو التعليم الحديث الذيرأوا فيه مفسدة ورجس من عمل الكفار , فرفضوا ارسال أبنائهم إلى المدارس الحديثة أو مدارس الارساليات خوفا عليهم من الكفر والإلحاد مما أدى ذلك لإغلاق هذه المدارس . وهنا كان لزاما على محمد المهدي بن عبدالله أن يستجيب لمشاعر أفراد المجتمع السوداني وذلك بتغيير مناهج التعليم الحديثة بمناهج دينية من أجل إقامة مجتمع يقوم على الكتاب والسنة وتتوحد فيه كلمة الأمة السودانية .⁽²¹⁾

أهداف التعليم في الدولة المهديّة :

ترمي دولة المهديّة في المقام الأول إلى تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب التي لحقت بها , وإقامة نموذجا لدولة راشدة تنداح فيها قيم العدل والأمانة والصدق وغيرها من المعاني التي يسعى الإسلام لتأصيلها في نفس الفرد المسلم , كما عملت على الاهتمام بحاجيات المجتمع التعليمية والثقافية والاجتماعية , كما سعت أيضا لبناء الإنسان ذاتيا من خلال تعليمه وصقل مهاراته وابتكاراته من خلال أهدافها التي رسمها محمد المهدي بن عبدالله وهي تتمثل في الآتي :⁽²²⁾

- 1- السعي لتوحيد أهل القبلة وعدم تشتيت جهودهم العقلية والفكرية وذلك من خلال التمسك بالثوابت في الدين .
- 2 - فتح باب الاجتهاد على مصراعيه واستصحاب آراء أئمة المذاهب إذا توافقت مع العصر .
- 3- تمكين راية التوحيد لله وتحقيق الولاء له وعدم موالاته الكافرين .
- 4 - تزويد الطلاب بالعلوم الدينية التي تمكنهم من الايمان بوحداية الله وإتباع سنة رسوله ودراسة القرآن الكريم وعلومه وتفسيره .
- 5 - غرس روح الجهاد في نفوس الطلاب وتعميق النواحي التهذيبية مثل الزهد والتواضع والتعاون .
- 6- التوسع في فتح الخلاوي التي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم الذي أصبح إلزاميا .

مناهج التعليم في الدولة المهديّة :

كانت الأمية والجهل بقواعد الدين الإسلامي يسود بين معظم أفراد المجتمع السوداني . لذا وجه اهتمامه لتعليم هؤلاء أصول الدين الإسلامي بإبعاده بعض الكتب التي كانت تدرس في الخلاوي والمساجد والتي يرى محمد المهدي بن عبدالله أنها كتب تحوي حيلة شرعية وأحاديث ضعيفة أدخلها بعض الملحدون لأغراض شخصية أو سياسية فقد أمر بحرق أغلب الكتب التي لا صحة لها وقد أبقى الكتب المشهورة التي اتفق العلماء على صحتها مثل مسلم والبخاري , وإحياء علوم الدين , وكتب الشعراني , والسيرة الحلبية , وكتب التفاسير مثل روح البيان , والبيضاوي , وجلال السيوطي وغيرها وقد أمر بتدريس القرآن الكريم .⁽²³⁾

وقد وجدت هذه المناهج والنظم التعليمية استجابة من أرباب المساجد والخلوي، بعضهم بدعوة منه ربما لعلاقة قديمة ترجع إلى علاقة زمالة دراسية في الخلوة، وبعضهم لتوافق آرائهم مع رأيه، وكان ضمن المهاجرين إليه بعض الشعراء الذين آزرُوا الدعوة المهدية أثاروا الحماسة في قلوب الناس، فالأمير ود التويم الجعلي انضم للمهدية في بدايتها، وصار من المقربين لمحمد المهدي بن عبدالله، وصار شاعر الثورة الأول، وأحمد القلع الذي أنشد القصائد في تمجيد الثوار. أما من العلماء نذكر أحمد المصطفى بن الأمين ود أم حقين أحد علماء الجزيرة اسلانج، كما هاجر إليه علماء آخرون كالحسين ود الزهراء والمضوي عبدالرحمن وإسماعيل عبدالقادر الكردفاني والشيخ أحمد المكاشفي أحد كبار فقهاء الكواهلة وغيرهم⁽²⁴⁾.

النظام التعليمي في الدولة المهدية :

ألغى محمد المهدي بن عبدالله المدارس العامة التي كانت قائمة في البلاد باعتبارها أثر من آثار الحكم التركي - المصري، كذلك ألغى المدارس التبشيرية التي كانت تديرها الارساليات المسيحية. وبذلك تركز النشاط التعليمي في الخلوي التي كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة⁽²⁵⁾. وقد بنى محمد المهدي بن عبدالله النظام التعليمي في الدولة المهدية على مرحلتين هما :

المرحلة الأولى :

هي مرحلة الخلوة التي تقوم رسالتها في تدريس القرآن الكريم وتحفيظه بالإضافة إلى تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الإسلام وقيمه الأساسية⁽²⁶⁾.

وتقبل الخلوي النظامية أطفال الأنصار في سن معينة تتراوح أعمارهم ما بين السادسة والرابعة عشر، ولا توجد فترة لتخرج طالب الخلوة النظامية حيث يستمر في الدراسة إلى أن ينتهي من حفظ القرآن الكريم وراتب المهدي⁽²⁷⁾.

وقبل أن يقوم الحوار في الخلوة بحفظ القرآن الكريم عليه أولاً أن يتقن أبجديات اللغة العربية وفيها يلتزم أحد الحيران الكبار بتعليم عدد معين من الحيران الصغار حروف الهجاء والتي تتم عبر عدة خطوات⁽²⁸⁾:

1- يكتب له مجموعة من الحروف الهجائية على الأرض بعد النظر إلى ما يماثلها على اللوح وينطقها له حوار أكبر منه سناً، ويأمره بحفظها ويكلفه بكتابة مثلها على الأرض، وهكذا حتى ينتهي من حفظها فينتقل إلى مجموعة الحروف التي تليها. وهكذا إلى أن يصل إلى حرف الياء، ويتأكد الحوار الكبير من إتقانه كافة الحروف.

2 - يكلف الحوار الكبير الحوار الصغير بمعرفة الحركات الثلاث الفتحة والضمة والكسرة ثم السكون ويعلمه كيفية قراءتها، ويعلمه بعض الكلمات التي تتضمن أحرفها تلك الحركات.

3- يكلف الحوار الكبير الحوار الصغير معرفة كتابة حروف المد وقراءتها ومعرفة كتابة التنوين ومعرفة حروف الشد وقراءتها ومعرفة الحروف المشددة مع التنوين.

و بعد أن يتأكد شيخ الخلوة من إتقان الحيران الصغار حفظ الحروف بالأبجدية. تبدأ عملية تعليم الكتابة والخط وحفظ القرآن الكريم بأن يكتب الشيخ لهم ألواحهم بنوى التمر ليكتبوا عليه من أجل أن يتعودوا على الكتابة وتحسينا للخط . وبذلك يتعلم الحيران الصغار الكتابة والخط وحفظ القرآن الكريم في وقت واحد . أما إذا أكمل الحوار حفظ جزء من القرآن الكريم يحتفى به وذلك بكتابة مطلع سورة خاتمة الجزء الذي حفظه ويزين طرف لوحه بألوان مختلفة على جوانبه الأربعة وتسمى تلك العادة (بالشرافة) ويأذن الشيخ لصاحبه بعرض لوح الشرافة على الأهل والجيران ليشاركوه فرحته فتقدم له الهدايا تشجيعا له وقد اعتاد بعض الناس عند كل شرافة حمل الطعام بكميات كبيرة إلى الخلوة للشيخ والحيران .⁽²⁹⁾

ويذكر أحد حيران الخلاوي في عهد دولة المهديّة بالسودان أن الخلوة أخذت مبدأ الشدة سلاحا لها من أجل الحفاظ بل والتهديب فالحيران الذين يعجزون عن حفظ القرآن الكريم بل ويتهربون من تسميع ما كتبوه من القرآن الكريم فهؤلاء يعاقبون بالجلد على أقدامهم بعد أن يتم ربط رجلي الحوار على آلة الفلقة (الفلقة) بسوط قصير من جلد فرس البحر يسمى (الجدوه) وهناك سوط آخر من جلد البعير يسمى (الفرطوق) .⁽³⁰⁾

المرحلة الثانية :

وهي المرحلة التي سماها محمد المهدي بن عبدالله بالمدرسة فهي تقوم بتدريس تفسير القرآن الكريم والفقهاء والتوحيد ودراسة الحديث والمعاملات والميراث.⁽³¹⁾ وطلاب هذه المرحلة لا يتقيدون بمكان معين للدراسة فهم يتبعون شيخهم أينما حل بل إن عملية التعليم وحفظ القرآن الكريم ظلت تمارس ليلا في أيام المعارك الجهادية ضد قوات الحكم التركي - المصري , كما أن التعليم كان يسير جنبا إلى جنب مع نشر الدعوة الإسلامية في جبال النوبة وجنوب السودان .⁽³²⁾

وظيفة الخلوة التربوية :

كان الجميع سواسية في الخلوة ولا يوجد ما يميز الحيران على أساس قبلي أو طبقي فالكل يحترم شيخ الخلوة واحترام الروابط بين أتباع محمد المهدي بن عبدالله (الأنصار) ومعرفة مبادئ المهديّة من خلال قراءة الدروس المستفادة من راتب المهدي كل ذلك كفيل بأن يشعر الأنصاري بنوع من التوحيد فالزي الموحد (الجبة) الذي يرتدونه بلونه الناصع البياض يشعرهم بالكيان الأنصاري وبروح الجماعة وكذلك الحشد الأنصاري الذي يشهده الحيران كل صلاة جمعة يولد لديهم شعور الانتماء لبقية الكيان الأنصاري خارج الخلوة فهم يشعرون بروح المحبة والأبوة من الأنصار الكبار خاصة في المناسبات الدينية والوطنية التي يشاركون فيها كما يحظون بنصيب كبير من الولايم التي تقدم في هذه المناسبات الاحتفالية .⁽³³⁾

وتحرص ادارة الخلاوي في دولة المهديّة على أن تطلق على حجرات الخلاوي أسماء دالة على الانتماء المهديّة مثل الجزيرة أبا , شيكان , وهي أسماء معارك حربية حقق فيها الأنصار انتصارات على قوات الحكم التركي - المصري في السودان .⁽³⁴⁾

التعليم الخاص في الدولة المهديّة :

كان محمد المهدي بن عبدالله بجانب تأسيسه للخلاوي فقد افتتح مدرسة في أم درمان لتعليم الصبيان من أسرى الحبشة كما افتتحت مدرسة أخرى لتعليم أبناء كبار دولة المهديّة يتعلم فيها اللغة والحساب والدين الإسلامي وبها بعض المقرئين أمثال الشيخ علي طلبة , والشيخ الصاوي , وأيضا بعض العلماء أمثال الطيب أحمد هاشم, وأحمد العجب وقد عهد أمرها إلى عثمان فريد

(35) ولعل من أبرز سمات هذه المدرسة أنها تدير تعليماً خاصاً يحظى به أبناء الأمراء وعلية القوم لذلك لم يكتب لفكرتها حظ الانتشار وكان يمكن أن تكون نواة لمدرسة حديثة تجمع بين علوم الشريعة الإسلامية والعلوم الأخرى وتسد بذلك ثغرة مهمة في الكادر المتعلم في دولة المهديّة .

مجالس المذاكرة :

ولما كانت الأمية والجهل بقواعد الدين الإسلامي يسود في أوساط أكثر الفئات فقد وجه محمد المهدي بن عبدالله جزءاً كبيراً من اهتمامه لتعليم هؤلاء أصول الدين الإسلامي , وسلك في ذلك أسلوباً عاماً أقرب إلى فهمهم , فبدأ بضرب الأمثال وإلقاء المواعظ عن الدنيا والآخرة ونعيمها , وأهتم بتعليمهم كيفية الصلاة وشروطها وآدابها . (36) وعلى هذا الأساس كانت مجالس محمد المهدي بن عبدالله مجالاً لنشر فكرة المهديّة . وقد انتهت إلينا مصنّفات دون فيها بعض أصحابها ما كان يرويه من الدروس التي كان يلقونها محمد المهدي بن عبدالله على أتباعه وكانت تتناول أمور كثيرة كال تفسير والحديث والوعظ في هذه المجالس. (37)

كتاب المجلس :

كتب محمد المهدي بن عبدالله كتاباً يوضح فيه كيفية قيام شهر رمضان وكان قد شرع في تأليف كتاب أسماه (المجلس) ضمنه إرشادات في الصلاة والأذكار وقراءة الراتب وكان يريد أن يضمّنهُ الأحكام الشرعية في المعاملات والديانة , ويكون سنة لأنصاره ولكنه توفي قبل أن يكمله . (38)

المطبعة الحجرية :

وقعت مطبعة الحجر في يد الثورة المهديّة بعد تحرير الخرطوم وقد أفاد منها محمد المهدي بن عبدالله وخليفته عبدالله بن محمد من بعده في طبع المنشورات والكتب وأهم ما طبع فيها غير منشورات المهدي وراتبه : رسالة الحسن سعد العبادي , ورسالة العوام , ورسالة الشيخ الحسين إبراهيم ولد الزهراء , ومنشور منع الظلم للخليفة عبدالله بن محمد التعايشي , وكتاب الزوجية في الميراث , وكتاب النصائح المرسلّة إلى الجهات المرسلّة إلى الجهات البحرية , ومنشور ترك الأسلحة النارية ودعوة شهر رمضان . (39)

مسجد الخليفة عبدالله بن محمد في أم درمان:

اهتم الخليفة عبدالله بن محمد بالتعليم فأسهّم مسجده في أم درمان اسهاماً بارزاً في التعليم الديني فبتكليف من الخليفة عبدالله بن محمد تولى الحسن سعد العبادي لفترة إلقاء دروس في المعاملات والحديث , كما استقدم الخليفة عبدالله بن محمد الشيخ الحسين إبراهيم الزهراء من أرض الجزيرة لإلقاء دروس في المواريث ذلك لحاجة الناس إليها خاصة عند تقسيم التركات . (40) ويذكر أن البنين والبنات كانوا يتعلمون في عهده قدراً من القرآن الكريم والحديث في حجرات مجاورة لمسجد أم درمان وكان بعض أولئك البنين يرسل بعد ذلك إلى بيت المال ليتعلموا قدراً محدوداً من المراسلات الكتابية العامة . (41) وقد جعل الخليفة عبدالله بن محمد فيما بعد تعليم القرآن الكريم إلزامياً لكل الناس كبيرهم وصغيرهم , كما ألزم أفراد جيشه بحفظ القرآن الكريم رغم قيامهم بأعباء الجهاد . (42)

وقد ساهم مسجد أم درمان وهو مسجد الدولة المهدية الرسمي في تدعيم فكرة المهدية وتعميقها في النفوس وكان يقوم بوظائف المساجد الأساسية , فبالإضافة إلى الآلاف الذين كانوا يرتادونه للصلاة , والذين فرض عليهم ملازمة الصلوات الخمس من الأعيان والعلماء , والذين كانوا يجلسون ممسكين بألواحهم يرتلون القرآن الكريم ويحفظونه عن ظهر قلب فانه كان مكانا للعبادة وتلاوة الراتب , ومحلا للتقاضي ومركزا للتعبئة الجهادية ومحلا للقاء الأمراء والأعيان , كما كان جزء منه مخصصا للاحتفالات الدينية والوعظ والإرشاد .⁽⁴³⁾

ومما سبق يتضح أن مسجد الخليفة بأم درمان كان عبارة عن مركزا للدروس الدينية التي تلقى على الأنصار في مجالات علوم القرآن الكريم والسنة والفقہ .

تعليم المرأة في الدولة المهدية :

أما عن تعليم المرأة في دولة المهدية فقد أوردت المؤلفات التاريخية أن نساء محمد المهدي بن عبدالله كن يقمن بعملية التدريس سواء كان قرآنا أو حديثا أو درسا في النحو وكذلك راتب المهدي وتميزت منطقة المجاذيب في شمال السودان بكثرة في شمال أم درمان , والجريف , وحلفاية الملوك , ومن النساء اللاتي أسهمن مساهمة فعالة في نشر التعليم الديني نذكر الشيخة خديجة الأزهرى التي كانت بجانب إدارتها لخلوتها تقوم بالطواف على النساء في المنازل لتعليمهن , كما اشتهرت بالطواف أيضا الشيخة الفقيهة رقية بنت عبد القادر من أهالي جزيرة توتي. وعندما تزور الشيخة أحد المنازل تتجمع حولها النساء من المنازل المجاورة فكانت حلقة الشيخة بحق مدرسة متحركة أفادت كثيرا في توعية النساء ونشر المعرفة بينهن .⁽⁴⁴⁾

ويذكر بابكر بدري أن أمه وأخواته كن يرتلن القرآن الكريم ويقرأن الراتب يوميا بعد صلاة الصبح .⁽⁴⁵⁾

مما سبق يتضح أن دولة المهدية بذلت مجهود مقدر في مجال تعليم المرأة من أجل أن تعرف ربه فتعرف بذلك مبدأها ومصيرها وسر وجودها .

التعليم الصناعي :

اهتم الخليفة عبدالله بن محمد بصناعة الأسلحة والذخيرة لتأمين سلطانه في الداخل ولحماية البلاد التي تربص بها الاستعماريون الأوربيون الدوائر من كل الجهات ففي ناحية الشمال كانت بريطانيا ومصر , أما فرنسا وبلجيكا في الغرب والجنوب الغربي , ثم إيطاليا وبريطانيا والحبشة في الناحية الشرقية للبلاد .⁽⁴⁶⁾ هكذا أصبح الخليفة عبدالله بن محمد في حرب دائمة معهم وقد منعوا عنه الأسلحة والذخائر منعا صارما بل منعوا عنه كل ما يساعد على عملها كالرصاص والنحاس والمبارد والكبريت وملح البارود . فوجه اهتمامه على عمل الجبخانه . وكان أهم ما لزمه الكبريت وملح البارود والرصاص والنحاس والمبارد وعجينة الكبسول (وهي المادة المفرقة فيها) . أما الرصاص فقد استخرجه من جبل الكتم في دارفور . وقد استعان الخليفة عبدالله بن محمد ببعض الأوربيين مثل لبتن بك مدير بحر الغزال السابق , والدكتور حسن أفندي زكي من أطباء الخرطوم. وأمر نوفل النمساوي وغيره فصنعوا له ملح البارود . وجمع كل ما أمكن جمعه من أنية النحاس في البلاد فصنع منها الظروف وأرسل إلى عماله في الجهات فجمعوا له الظروف الفارغة من مكان المعارك . وأقام معملا للبارود في جزيرة توتي وورشة

لعمل الخرطوش في أم درمان .⁽⁴⁷⁾ ولعل الاهتمام بهذا النوع من التعليم دليل واضح لسد النقص في احتياجات الدولة المهدية من البارود والمواد الأخرى .

الخاتمة :

تركز النشاط التعليمي في السودان خلال فترة الدولة المهدية في الخلاوي التي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة ودراسة الصحيحين وإحياء علوم الدين للغزالي. مع راتب المهدي و منشوراته, ومع كتب أخرى سماها لأنصاره , وأذن بها إذنا خاصا ككشف الغمة للشعراني وغيره .

وقد كتب محمد المهدي بن عبدالله كراسا يوضح فيه كيفية قيام شهر رمضان , وكان قد شرع في تأليف كتاب أسماه (المجلس) ضمنه إرشادات في الصلاة والأذكار وقراءة الراتب , وكان يريد أن يضمه الأحكام الشرعية في المعاملات والديانة , لتكون مثبتة , وتصبح سنة متبعة , ولكنه توفي قبل أن يكمله . هذا وإن مطبعة الحجر التي وقعت في يد المهدية بعد تحرير الخرطوم قد استفاد منها محمد المهدي بن عبدالله وخليفته عبدالله بن محمد من بعده في طبع المنشورات وغيرها .

وقد أدت هذه الحركة العلمية الجديدة إلى إغلاق المدارس وإلى تعطيل دروس العلم التي كانت قائمة على النهج السابق , وانضم بعض العلماء ممن أصبح يعتمد عليهم في نشر تعاليم المهدية .

وقد أسهم مسجد الخليفة عبدالله بن محمد في أم درمان اسهاما بارزا في التعليم الديني حيث مثل مركزا للدروس الدينية التي تلقى على الأنصار فيما يتعلق بعلم القرآن الكريم والسنة الشريفة والفقه .

النتائج :

- (1) دفع النظام التعليمي للدولة المهدية في السودان بعدد كبير من خريجي الخلاوي الذين لعبوا دورا كبيرا في تربية النشء كأباء ومدرسين .
- (2) الراتب هو الدستور الروحي للدعوة المهدية في السودان.
- (3) أدخلت دولة المهدية تجربة التعليم الخاص في السودان .

التوصيات :

- (1) إحياء رسالة المسجد ليعود مدرسة لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ كتاب الله وجامعة تعقد فيها حلقات العلم للجميع وتدار فيها المحاضرات والمنافسات العلمية .
- (2) دراسة الراتب دراسة علمية تخرج به عن حيز التعبد الذي عليه أنصار محمد المهدي بن عبدالله إلى رحاب العلم الواسع.

الهوامش :

- (1) محمد ابراهيم أبوسليم, الحركة الفكرية في المهديّة, ط³, 1989م, ص 27 – 28.
- (2) مكي شببكة , السودان في قرن, ط², مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر, القاهرة, 1376هـ – 1957م, ص 138.
- (3) نعوم شقير , جغرافية وتاريخ السودان , ط², دار الثقافة , بيروت , 1972م, ص 638.
- (4) عبدالودود ابراهيم شلبي , الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته , القاهرة , بدون تاريخ , ص 21 .
- (5) مكي شببكة , تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي , بيروت , 1965م, ص 643.
- (6) نعوم شقير , المصدر السابق , ص 638 – 639.
- (7) محمد ابراهيم أبوسليم , الحركة الفكرية في المهديّة , مرجع سابق , ص 29 – 30 .
- (8) محمد سعيد القدال , الإمام المهدي (لوحة لثائرسوداني) , مطبعة جامعة الخرطوم , 1985م , ص 47 – 48 .
- (9) ابراهيم فوزي , السودان بين يدي غردون وكتشنر , ج¹, القاهرة 1319هـ , ص 74.
- (10) نعوم شقير , المصدر السابق , ص 643.
- (11) محمد ابراهيم أبوسليم , الحركة الفكرية في المهديّة , مرجع سابق , ص 32.
- (12) اسماعيل عبدالقادر الكردفاني , سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي , تحقيق محمد ابراهيم أبوسليم, بيروت, 1982م, ص 109 – 110.
- (13) مهديّة 15/2/8, منشورات المهدي , الأحكام والآداب , ج³, ص 144, دار الوثائق القومية بالخرطوم .
- (14) ابراهيم فوزي , المصدر السابق , ص 85 .
- (15) رودلف سلاطين , السيف والنار في السودان , تعريب جريدة البلاغ , مكتبة الحرية , أم درمان , ص 125.
- (16) عبدالمجيد عابدين , تاريخ الثقافة العربية في السودان , ط², بيروت , 1967م , ص 130.
- (17) مكي شببكة , السودان عبر القرون , دار الجيل , بيروت , 1411هـ – 1991م , ص 238.
- (18) الصادق المهدي , يسألونك عن المهديّة , بيروت , 1975م , ص 207.
- (19) المرجع نفسه , ص 204.

- (20) مكي شببكية , السودان عبر القرون , مرجع سابق , ص 251.
- (21) محمد ابراهيم أبوسليم , تاريخ الخرطوم , ط³, دار الجيل , بيروت , لبنان , ص 43.
- (22) محمد الطيب محمد عبدالله أبوشوك , النظام التعليمي السوداني , الأزمة والأمل , ط¹, مطبعة المصاييح للطباعة والنشر , أم درمان , أغسطس 2011م , ص 100.
- (23) مكي شببكية , السودان عبر القرون , مرجع سابق , ص 375.
- (24) يحيى محمد ابراهيم , تاريخ التعليم الديني في السودان , ط¹, دار الجيل , بيروت , لبنان , 1407هـ - 1987م , ص 335 - 338.
- (25) المرجع نفسه , ص 334.
- (26) المرجع نفسه , ص 79.
- (27) هدي مكايي , البناء الاجتماعي للمهدية في السودان , ط¹, مكتبة مدبولي , القاهرة , 2007م , ص 176.
- (28) المرجع نفسه , ص 178 - 179.
- (29) عون الشريف قاسم , الإسلام والعربية في السودان , ط¹, دار الجيل , بيروت , لبنان , 1409هـ / 1989م , ص 132 - 133 .
- (30) بابكر بدري , تاريخ حياتي , ج¹, بدون تاريخ , ص 21.
- (31) ابراهيم الجاك ابراهيم , الحياة الاجتماعية في الدولة المهدية بالسودان 1298هـ / 1881-1898م , مجلة دراسات أفريقية , العدد 16, يناير 1997م , رمضان 1417هـ , ص 131.
- (32) مهدية / وثائق مختلفة , وثيقة رقم 4 (خطاب من المهدي إلى عربان الرواوقة بتاريخ 16 ربيع آخر 1301هـ , 14 فبراير 1884م , دار الوثائق القومية بالخرطوم . تحت الرقم 4 / 1/8 . نقلا عن ابراهيم الجاك ابراهيم , المرجع نفسه والصفحة .
- (33) هدي مكايي , المرجع السابق , ص 177.
- (34) المرجع نفسه , ص 176.
- (35) محمد ابراهيم أبوسليم , تاريخ الخرطوم , المرجع السابق , ص 97 .
- (36) يحيى محمد ابراهيم , المرجع السابق , ص 330 - 331.
- (37) المرجع نفسه , ص 331.
- (38) نعوم شقير , المصدر السابق , ص 943.
- (39) المصدر نفسه , ص 1291.

- (40) يحيى محمد ابراهيم , المرجع السابق , ص 340.
- (41) رودلف سلاطين , المصدر السابق , ص 250.
- (42) يحيى محمد ابراهيم , المرجع السابق , ص 339.
- (43) المرجع نفسه , ص 341.
- (44) حاجة كاشف بدري , الحركة النسائية في السودان , ط¹ , دار جامعة الخرطوم للنشر , الخرطوم , 1984م , ص 7-8 .
- (45) بابكر بدري , المصدر السابق , ص 129.
- (46) بشير كوكو حميدة , صفحات من التركية والمهدية , دار الارشاد , الخرطوم , 1389هـ - 1969م , ص 223.
- (47) نعوم شقير , المصدر السابق , ص 1254-1255.